الفصل التاسع

التطور الصوتي والدلالي في اللغة

تحدثنا فى الفصل السابق أن اللغة فضلا عن أنها وسيلة اتصال وتفاهم ، أنها تدخر فى كلماتها : أخلاق أهلها وعاداتهم ، ونشاطهم الأدبى والفكرى .

أو كما يقول (أناتول فرانس) فى ايجاز ، تسجل : « آثار الحياة العامة ، وحياة الدور والمنازل ، وآثار الذين استنشقوا الهواء . وكل كلمة من كلمات اللغة يقابلها فكر من الأفكار : كان فكر طائفة من البشر لا يعلم عددهم . وعاطفة من العواطف كانت عاطفة جمهور من الناس لا يحصون .

وان كل كلمة من هذه الكلمات المجموعة ، انما هى لحم الوطن والبشر ودمهما وروحهما » . (١)

ورأينا أن اللغة لا تثبت على حال ، وانما تتقلب فى حركة دائبة وتغير شأن ما فى المجتمع من حياة وشئون وأحياء .

ويدور هذا التغير وفق قوانين معروفة فى اطار : علم الأصوات ، وعلم الاجتماع اللغوى ، وعلم النفس اللغوى ، وكذا علم الاساليب والدلالة : اى فى الشكل والمظهر ، وفى المعنى والمخبر ، فلا تثبت الأصوات على أول ما درجت عليه فى طبيعتها ، ولا المعانى الاجتماعية على مداليها ، على مدى الأجيال .

فقد وجد العلماء على طول المدى : أن ذوات القربى من اللغات تتقطع وشائجها ، وتمعن فى البعد والاغتراب . يقول ابن حزم :

---

(١) المناهج الادبية ص ٢٠٢

« الذى وقفنا عليه ، وعلمناه يقينا : أن السريانية والعبرية والعربية ، التى هى لغة مضر وربيعة لا لغة حمير ــ لغة واحدة ، تبدلت مساكن أهلها ، فحدث فيها جرش ، كالذى يحدث من الأندلسى اذا رام نغمة أهل القيروان ، ومن القيروانى اذا رام نغمة الأندلسى .

ونحن نجد من سمع لغة أهل فحص البلوط ــ وهى على ليلة واحدة من قرطبة ــ كاد يقول : انها لغة أخرى ، غير لغة قرطبة .

وهكذا فى كثير من البلاد ، فان مجاورة أهل البلدة بأمة اخرى تتبدل لغتها تبدلا لا يخفى على من تأمله ...

فمن تدبر اللغة العربية والعبرية والسريانية .. أيقن أن اختلافها انما هو على ما ذكرنا ، من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان ، واختلاف البلدان ، ومجاورة الأمم ، وأنها لغة واحدة فى الأصل » (١) .

ونشطت جهود اللغويين لدراسة ميدان هذا التطور والتغير ، ومظاهره وأسبابه . ويعود ميدانه ــ كما قلنا ــ الى ناحيتى مبعث اللفظ ، ومحط الدلالة ، أى الناحية الصوتية والدلالية . ومظاهرة تلاحظ فى التغير البادى فى نطق الأصوات ، وتبدل المعنى الدلالى أو تحريفه من جيل الى جيل .

وأما أسبابه ، فترجع الى : عوامل عضوية ، أو صفات صوتية ، أو دلالية : فتتمثل العوامل العضوية فى اختلاف أعضاء النطق ، التى تميز صوت كل فرد عن غيره ، وكل جنس عما سواه وأيضا فى تطور أعضاء النطق من جيل لاحق عن سابق ، فى الاستعداد والبنية . وكذلك فى الأخطاء السمعية ، لعلة أو عارض ، فتحور وتغير الصوت بلا قصد عن وسمه وطبيعته وسمته .

وتتمثل العوامل الصوتية ، فيما ينتاب الصوت اللغوى من وهن أو حذف ، أو تفاعل مع جيرانه ، أو تبدل فى مواقعه وتناوب .

أما تغير الدلالة ، فيرجع الى أسباب بيئية ، أو حضارية ، أو نفسية ، أو اجتماعية ، أو ثقافية . وقد أوضحنا بعض هذه المظاهر للتغير الدلالى فى الفصل السابق .

وتلك المظاهر تلقائية جبرية وشاملة : تطبع كل أفراد البيئة اللغوية

---

(١) الاحكام فى أصول الأحكام ١/٣٠

بطابعها وتجرفهم فى تيارها ، فيخضع لها الجميع ، ومن شذ لفت الأنظار اليه بسخرية ، أو استهجان أو دهشة من ابناء لهجته .

● فأعضاء النطق (الرئتان ، والقصبة الهوائية ، والحنجرة ، والوتران الصوتيان ، واللسان ، والشفتان ، والتجاويف الفمية والأنفية) تختلف من شخص لآخر ، وتتنوع الأصوات تبعا لذلك .

كما ان هذه الأعضاء تتغير من جيل لجيل ، وتتأثر بمؤثرات من بيئة لاخرى ، كما اثبت علم التشريح . وصوت البدوى والقروى اقوى واوضح واجش من صوت الحضرى . والاختراعات المعينة على نقل الصوت وتكبيره تجعله يميل فى طبيعته للخفوت ، وفى أعضائه للرخاوة ، وفى صفاته للميل الى الهمس والضعف . ونتيجة لذلك تتبدل صفات الحروف ، ومخارجها ، وقد تسقط ، ميلا الى الخفة والسهولة .. وهنا تبدو مظاهر الخلف فى النطق واضحة ، وبخاصة حين نتفق على مقياس ثابت نراه يحتفظ بسمات نطق الأقدمين ، كالعربية الفصحى عند الأول ، اذا قسناها على نطق المجيدين لقراءة القرآن الكريم اليوم مثلا

وحين ينطق الحرف الذى ضعف ، أو يترك الذى سقط ، يقلده السامع ويحاكيه فيصبح عرفا مألوفا ونهجا مأنوسا .

وقد تحدث سيبويه عن الضاد الضعيفة ، أى التى ليست فى عداد النطق العربى الصرف ، وهو فى القرن الثانى الهجرى ، قريب عهد بالبداوة ، والفصاحة واهلها .

وتحولت (الذال) فى عصرنا الى (ذاى) ، والى (دال) أيضا ، كما فى : (كزلك ودراع) (وأذن الى ودن) . وتحولت (القاف) الى (همزة ، أو جاف) ، كما فى (ألت ، وجات) . ومازالت بعض اللهجات تنطقها (قافا) كما هو الأصل . على حين استعصمت القاف فى أماكن (كالقرآن ، والقاهرة) وتبدلت فى أماكن ما كان يحق لنا التساهل فيها ، لأنها سماعية ، فقلنا (عبد الخالىء) .

وكذا تبدل فى الفرنسية حرف (A) الى (E) ، ونطق حرف التعريف فى الانجليزية من (ذا) الى (زا) ...

وصوت (شق) لثوب عندنا ، هو (جق) عند الفرس . اذ استسهل اللاغون لأعضاء النطق ما يوائمها فى كل عصر وبيئة ، وفى وضعها الجديد

بما لا يشق عليها ، ولا يكلفها الجهد والعناء اذ هى لا تعمل بطاقتها كاملة . ولهذ تفرقت اللغات الى لهجات ، والعكس بالعكس .

« وكلما كان الشعب قريبا فى النسب والدم الى اللغة الأم .. كلما كانت لهجته اقرب اليها : فالقبائل العربية المهاجرة الى البلاد العربية لهجاتها اقرب الى الفصحى للآن فى مظاهر كثيرة .

والايطالية اقرب الى اللاتينية من الفرنسية ، لصلة الايطاليين نسبا ودما بالرومان ، والفرنسيون اقرب الى الجنس السلتى والجرمانى » . (١) فلهجتهم فيها مظاهر خلف كثيرة وواضحة .

وتتسع مسافة الخلف فى النطق لما سلف ، فتمرن أعضاء النطق ارادياً واضطراريا ، ويؤدى كل ذلك الى ظواهر خطيرة فى اللغة :

فعاميات عربيتنا الفصحى بعدت كثيرا عن بعضها . وسقطت وتلاشت علامات الاعراب ، وكذلك حروف العلة ، كما فى قولنا (محمد وحمد ومصطفه وعبد الخالىء اعدين يسمع الرادى فى دور لعمده) اى : (محمد واحمد ومصطفى وعبد الخالق قاعدين يسمعون الراديو فى دوار العمدة) .

ومثل ذلك التغيير حدث فى غير العربية ، فقد تحولت (Fava) فى الفرنسية القديمة الى (Feve) ، وتحولت الأصوات القوية فيها الى أصوات ضعيفة، كما فى (Polomb) الى (Poln) وتخلت اللاتينية ايضا ـ لذات الأسباب ـ عن علامات الاعراب . » (٢) وتلك سنة اللغات فى تطورها ، ولا يملك الانسان لسننها تغييرا ، ولا لمجرياتها وزحفها صدا ولا توقيفا .

والتفاعل بين أصوات ، للتجاور أو التقارب ، كثيرا ما يجعلهما عرضة للتغير أو الانحراف : فتارة يلتصقان بعد تباعدهما ، فيتكون منهما صوت لين مركب ، ويسقط ما يفصلهما من أصوات ، ففى اللاتينية ـ مثلا ـ : (Regina) تحولت فى الفرنسية القديمة الى (Reine) وتارة يتباعدان بعد التصاقهما ، فيقحم بينما صوت ساكن (غير لين) لتسهيل النطق ، ففى الفرنسية

---

(١) علم اللغة . د . وافى ص ٢٧٥ ـ ٢٨١ بتصرف .
(٢) المصدر السابق .

القديمة (Pooir) تحولت فى الجديدة الى (Pouvoir) وتارة يتحول احدهما الى صوت آخر اذا كانا متحدين ، ففى اللاتينية (Vicinus) تحولت فى التخاطب عند الرومان الى (Vecinus) . وتارة يتحول (اللين) الى (سلكن) ، فيخرج عن فصيلته خروجا تاما ، ففى اللاتينية ، (Piattea) ، اذ تحولت الى (Plattsa). (١) .

ولعل هذا التغير الأخير هو أظهر وأخطر ، فمعنى ذلك أن التغير والتطور سينال الحروف الساكنة كما نال اللينة .

ويشبه الدكتور وافى تفاعل الحروف الساكنة حين تجاورها وتقاربها ، فتتجاذب عند الاختلاف ، وتتنافر عند الاتحاد ، شبهها بالكهرباء فى الايجاب والسلب :

فالتجاور لصوتين مختلفين مخرجا يجذب الصوتين ، فليتصقان ، وينتقل احدهما الى الآخر ، كما فى حرفى R ، و B فى كلمة (Berbis) التى تحولت الى (Brebis) وتسمى ظاهرة النقل المكانى . أو يتحول الى صوت من نوع آخر ، كتحول الأول الى نوع الثانى ، كاللام الشمسية فى اللغة العربية (كالشمس) وتحولت فى العامية الى (سمس) . أو يتحول الثانى الى نوع الأول ، كما فى (Gamba) التى تحولت الى (Gamma) واحيانا يتلاشى احدهما ، أو يتمزجان .

أما اذا تجاور المتحدان أو تقاربا ، فانهما يتنافران :

فيتحول احدهما الى صوت مغاير للآخر ، كما فى (orphani) فى الفرنسية الى (orphe) ، اذ تحول اولهما . أو يتحول الثانى ، كما فى (Cribrum) اللاتينية ، التى تحولت فى الفرنسية (Cribic) ، وتسمى (ظاهرة التباين) .

واحيانا يسقط احدهما ، كما حدث فى معظم الأصوات المشددة ، التى تحولت الى اصوات مخففة ، كما فى بعض اللهجات (كلّمى أمّها عَمّها ، من كلْ بدْ) ، أى : كلمّى أمها وعمها) من كلّ بدّ .

وتارة يتساقطان معا ، ويحل محلهما صوت واحد غريب عنهما ، كتحول

---

(١) المصدر السابق .

اللام المشددة فى اللاتينية الى تاء أو راء فى آخر اللغة الجكسونية حين تقع بين حرفى لين ، مثل Belluw و Bella ، اذ تحـولا الى : Bet و Bera

وفى عاميات العربية الشىء الكثير من ذلك قولهم لما اختلفت هيئته وشكله، مثل : (يُسجد ، عُتُر ، خِلِص ، سُكُت ، كِبِير . . فى (يَسجد، عَتُر، خَلُص، سَكَتَ، كَبِير . .)وحدث تناسخ فى الأصوات ، كما فى : (صاخن ، ويسدق ، وضل ، فى عامية مصر . (وظوء،يظيع ، وينطى)فى عامية العراق . . فى ساخن ، يصدق ، وظل ، وضوء ، يضيع ، يعطى .

وأحيانا تتطور الأصـوات وتـدور حتى ترجع الى أصلها القديم ، مثـل (التـاء) فى الالمـانية فى كلمـة(Fraten)تحولت الى (ذال Th) فأصبحت (Bruther) ، ثم تحـولت الذال الى دال ، فأصـبحت (Bruder) وتحولت الدال فى الأسبانية الحديثة الى تاء ، فأصبحت (Bruter) . وبذلك عاد هذا الصوت الى الأصل القديم ، بعد هذه التطورات الثلاثة ، وقـد اصطلح العلماء الالمان على تسمية ذلك بالدورة الثلاثية » (١) .

وقد اشار علماء التجويد الى تفاعل الحروف وتأثر بالخارج قربا أو بعدا وبالمجاورة ، كما اشارت كتب القراءات والأدب واللغة الى وجود لهجات فى العربية الفصحى ، افردها علماء اللغة بكتب خاصة :

فالقراء السبعة ادغموا النون الساكنة والتنوين فى حروف (ى ن م و) ادغاما مصاحبا للغنة ، فى مثل « مَنْ يَقُولُ » ، « وبَرْقٌ يَجْعَلُونَ » ، « مِنْ نُور» ، « يَوْمئذٍ ناعمةٌ » : : : ولكن خلفا من القراء يقرأ بغير غنة عند الواو والياء ، فى مثل «من وَالٍ» ، « غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ » ، «ومَنْ يَجْعَلِ» (٢) . .

والنون الساكنة والتنوين يقلبـان ميما اذا جـاءت بعدهما البـاء ، عند جميع القراء ، مثل : «أنبئهم» «من بعدهم» « صمٌ بُكْمٌ » . بينما يكون حكمهما الاخفاء ، وهو حالة بين الاظهار والادغام ، وهو عار من التشديد ، مثل : « مِنْ تَحْتِهَا» ، «يَنْتَهُونَ» ، «مَنْثُورًا» ،«جميعاً ثُم» (٢) . ويكون

---

(١) علم اللغة . د . وافى ص ٢٨١ وما بعدها بتصرف .
(٢) سراج القارىء المبتدى لابن القاصح ص ١٠١
(٣) المصدر السابق ص ١٠٢

الاظهار الحلقى اذا وقع بعدهما حرف من حروف الحلق (ء . هـ . ع . ح . غ خ) مثل : « مَنْ خَلَقَ » « عَلِيمٌ حَكِيمٌ » ..

وجاء ادغام الحرف الأول فى الثانى ، فى مثل : «حتى إذا ادَّارَكُوا»، اصلها تداركوا . وجاء العكس فى قول الشاعر : ... « ونُظْلَمُ أحياناً فَيَظْلِم» . وجاء الفك والادغام فى مثل : «ومَنْ يُشَاقَ»، «ومَنْ يُشَاقِق»، وفى « لَقَدْ ظَلَمَكَ » (١) وحمزة والكسائى من القراء أمالا (الألف) المنقلبة عن الياء ، فى الأسماء والأفعال امالة كبرى ، اى متناهية فى الانحراف ، مثل : « اصطفى » « عيسى » (٢) وقرا ابو عمرو : «وإذا الرسل وُقِّتَتْ. (٣)وقراحمزة والكسائى : « افْتَمْرُنَه » ، بفتح التاء وسكون الميم من غير الف (٤) وقرا عاصم : « لَهُ شَمَرٌ » . ، بفتح الثاء والميم ، والباقون بضمهما . وقرا نافع وابن كثير وابو عمرو : «نَفْساً زَكِيَّةً » ، وقرا الباون« زَكِيَّةً »بترك الالف وتشديد الياء (٥)

فهذه القراءات الصحيحة ، واحكام التجويد ، واللهجات الواردة ، كلها فصيحة ، وتمثل فى العربية علامة تسهيل للقراءة ، وان فى القراءات لهجات راعاها القرآن الكريم ، الذى نزل بلغة قريش ، فاذا نحن حاولنا تفصيح بعض الالفاظ العامية التى هالنا انشعابها ، لتعود الى الفصحى ، فسنجد كثيرا منها ترجع الى أصول عربية ، وبذلك تضيق مسافة الخلف بين عاميات العربية ، وبين فصحانا العزيزة : فالصاد فى الصبر والصلاة ، قد تحولت فى العامية الى (السين) ، بينما حدث العكس فى (صاخن)، وسجلت اللهجات: أن اعرابيين اختلفا فى نطق (الصقر) ، فقال أحدهما : هو بالصاد ، وقال الثانى : هو بالسين . واحتكما الى اول اعرابى قادم عليهما ، فقال : أما نحن فنقوله (بالزاى) . وجاء فى غيث النفع فى القراءات : أن القراء يقرأون

---

(١) المصدر السابق ص ٩٤
(٢) المصدر السابق ص ١٠٣
(٣) المصدر السابق ص ٣٧١
(٤) المصدر السابق ص ٣٥٨
(٥) المصدر السابق ص ٢٧٩

(صراط) بالصاد ، وقنبل يقرؤه بالسين ، بينما خلف يقرؤه بالاشمام : اى بين الصاد والزاى (١) . فعسى ان نغذ الخطى لتفصيح بعض الفاظ العامية ، فى ضوء الصحيح الوارد عن علمائنا،وتعين كل الامكانات على نشره واستعماله، لتزدهر من جديد الفصحى بتيار أقوى ، فى وقت انحرفت فيه العامية بما ينذر بالخطر .

وما دخل العربية من تغيير أو تحريف قديم ، أشار اليه علماؤنا القدامى والمحدثون ، وحاولوا علاجه ، ونبهوا عليه ، وأقاموا حواجز لصيانة الفصحى لغة المقدسات فى كتبهم :

فلابن قتيبة (٢٧٦ هـ) لحن العامة ، وللحريرى (درة الغواص) ، ولابن السكيت (٢٤٤ هـ) اصلاح المنطق وللجواليقى (٥٣٩ هـ) المعرب ، ولابن مكى الصقلى (٥٠١ هـ) تثقيف اللسان ...

فابن السكيت ينبه فى فصل على ماهو مفتوح الأول ، والعامة تضمه أو تكسره . وما يهمز وتركت العامة همزه ، مع أن ابن كثير يقرا : « قِسْمَةٌ ضِئْزَىَ » بالهمز . (٢) وحفصا يقرا (هُزُوًا) بالواو ، وغيره بالهمز ، وحمزة باسكان الزاى (٣) .

ويقول ثعلب فى (فصيحه) : « هذا اختيار فصيح الكلام مما يجرى فى كلام الناس وكتبهم . فمنه ما فيه لغة واحدة والناس على خلافها فأخبرنا بصواب ذلك . ومنه مافيه لغتان وثلاث واكثر من ذلك ، فأخبرنا بأفصحهن ، ومنه مافيه لغتان كثرتا واستعملتا ، ولم تكن احداهما اكثر من الأخرى ، فأخبرنا بها » (٤) .

وهى محاولة ذكى أريب ، علنا ننقبها من جديد ، ونستهدى بها .

وفى سنة ١٢٩٦ هـ راينا مؤلف صديق حسن خان العنوجى : « لف القماط على تصحيح بعض ما استعملته العامة من العرب ، والدخيل والمولد

---

(١) غيث النفع ، هامش سراج القارىء ص ٢٢٠ .
(٢) سراج القارىء ص ٣٦٠ .
(٣) غيث النفع ص ٢٨٠ .
(٤) مقدمة فصيح ثعلب

والأغلاط » . وعسى أن تقوم المحاولات والأبحاث والكتابات المعاصرة ، لتصف العلاج ، وتوقف زحف الداء ، حفاظا على العربية . وتوحيدا لشعوبها .

والتطور الدلالى كالتطور الصوتى :

في انه تلقائى آلى جبرى شامل ، ويزحف ببطء على مدى الأجيال ، ولا يفلت منه فرد يعيش فى مجموعته ، ولا يستطيع أحد ايقافه وسريانه فى اللغة .

وظواهره تصيب المفردات ، كما تلحق بالقواعد ونظم الجملة ، وتؤثر فى الأساليب .

وقدمنا ان اى لغه أو لهجة محتك بأخرى ، أو تغزوها تمطرها فى بادىء الأمر بسيل من المفردات ، يوهن متن المغزوة ويخلخله فيتداعى .

واحيانا تتطور المفردات بدون احتكاك خارجى ، فيخصص معناها أو يعم ، ويبقى على حقيقة وضعه أو يستأثر به نقل مجازى ، وقد يستعمل فى المعنيين ، الحقيقى والمجازى بمساواة او كثرة ، وقد يلمح الأصل الحقيقى وقد ينسى فيصبح المجازى كوضع ثان له . وقد تستعمل اللفظة فى معنى غريب وبعيد كل البعد عما وضعت له أولا :

فقد كان الدليل حادى القوم ومرشدهم الى الطريق ، وهو شاهد على صحة المسائل ، وهو الشاهد فى المسائل العلمية ، هو علامة تنصب على الطريق ، وهو جامع أسماء المشتركين فى الهاتف .. وكل استعمالاته قريبة المعنى من الأصل « وكلمة Boureau» فى الأصل صنف خاص من القماش ، واستعملت لغطاء المائدة ، ثم لنفس المائدة ، ثم لمائدة المكتب ، ثم للمكتب ، ثم لمقر العمل والادارة . فالعلاقة متسلسلة وقريبة ، ولكنها بعيدة بين الأول الأخير » (١) .

وعلامات الاعراب سقطت من أواخر الكلمات فى كل اللغات المغربة حتى نشأت عامياتها .

وتداعى المعانى لعلاقات الجوار والمشابهة جعل الدلالة لاتقف ثابتة : فالعقيقة هى الشعر على المولود ، ونقلت الى ما يذبح عند ازالة هذا

---

(١) علم اللغة . د . وافى ص ١٨٣

الشعر ، وكذلك الظعينة للمراة فى الهودج ، ثم اطلقت عليه . والمجد هو امتلاء بطن الدابة بالعلف والماء ، وانتقل بمعنى الامتلاء الى الكرم والشرف فسمت وارتقت ، وتصل العلاقة احيانا الى الضدية : فالسدفة للضوء والظلمة لانها بين بين فى الأصل . والجون : للأبيض والأسود ، اذ هو من جون البيت بمعنى طلاه باللون الأبيض للفرح ، وبالأسود فى الحزن . ويكون للعين ، وللخال ، وللسيف معانى كثيرة واستعمالات عديدة فى المشترك اللفظى .

وفى الأصل كان : الحج ، والصلاة ، والصوم ، والزكاة .. لعموم القصد ، والدعاء ، والامساك : والطهارة ، والنماء .. لكنها قيدت فى الاستعمال الاسلامى : بقصد مكة فى زمن معين ، واعمال واقوال الصلاة والامساك نهارا فى رمضان ، واخراج جزء معين من المال يصرف لجهات معينة . وكانت كلمة (Arraiv) للوصول الى الشاطىء ، فعبت كل وصول بعدئذ . وكانت الحوة شية فى الخيل ، فأصبحت تطلق على كل اسود .

ولقداسة او تقدير يحتفظ المفرد بهيئته : فالقاف فى القاهرة والقرآن باقية ، ولم تبق فى البرتقال وقال .

وحين تنقرض العادة ينقرض اللفظ او يتحول فى الاستعمال : فجملة (رفع عقيرته) تستعمل اليوم لمن يرفع صوته فى الخطابة ، واصلها لاعرابى قطعت رجله ، فرفعها ونادى مستغيثا بقومه . وكذلك (بنى بأهلة) أصلها فى بناء الخباء عند العرب قديما لمن يعرس بزوجه ، ويبنى لها خباء ، وتطلق اليوم على من يدخل بأهله (١) .

وقد تبتذل اللفظة ، لأن المجتمع اشاع ابتذالها ، مثل (خول وعلق) والرسول ــ صلى الله عليه وسلم يقول : ــ موصيا بالخدم والعبيد : « اخوانكم خولكم (اى خدمكم) اطعموهم مما تطعمون ، والبسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم مالا يطيقون » . واللغة تقول على ما يمدح : هو علق نفيس . فانظر النقلة اليوم .

كما انقرضت نهائيا مفردات ، مثل : المرباع لربع الغنيمة ، والصرورة لمن يدع النكاح تبتلا ، والنوافج للابل التى تساق فى صداق المراة .

---

(١) فقه اللغة د . نجا ص ٤٧

وتتطور البيئة فتتغير الالفاظ فى مدلولاتها : فالقطار اليوم للآلة التى تسير بالبخار او غيره على قضبان حديدية وهو من قبل لعدد من الابل تسير متتابعة على نسق ووجهة واحدة . والريشة اصلها من الطائر واستعملت فى الكتابة ، وتطلق اليوم على قلم ذى سن من حديد .

وعدم وضوح الكلمة فى الذهن او السمع او لعاهة يجعلها فى استعمال غير ما وضعت له : فقد قال اعرابى للرسول الأكرم انه يخدع من التجار عند البيع ، فقال له النبى : قل عند البيع : (لاخلابة) اى لاخداع ، وكان الرجل الدغ فقال : (لاخيابة) ، وسمعها منه رواة الحديث فجمعته هكذا ، حتى تنبهوا لها فنبهوا عليها .

وكذلك مألوف الاستعمال المجازى خلفا عن سلف يثبت النقلة : « ففى الفرنسية (Saoui) للشبعان من الطعام أساسا . لكن كثر استخدامها فى وصف النشوان من الخمر مجازا وتهكما ، وتحرجا من استعمال الكلمة الصريحة فى هذا المعنى (Jvre) ، فظنت الأجيال التالية أن الأولى حقيقة وصريحة فى النشوان لكثرة استعمالها (١) .

وقد نقل الدكتور وافى عن (آثار حضارة الفراعنة) للأستاذ محرم كمال ، الفاظا مازالت تزاحم العربية فى فصحاها وعاميتها ، ففى مصر تستعمل هذه الالفاظ : (مم ، اومبو ، واوا ، تاتا ، كخ ، بعبع ، بمعنى : أونم (اى طعام) ، وامبمو (للشراب) ، وتوجع ، وامش ، وقذارة ، واسم لعفريت مصرى فى المصرية القديمة) . وفى لعبة الكرة الشراب : (سنو ، كحكو ، شكا .. بمعنى : يلعب ويتمنى ويضرب ، فى المصرية القديمة أيضا) .

كما تركت القبطية مفردات فى عامية العربية ، مازالت تستعمل ، مثل : (ترخ ، حمراة ، بيصارة ، ياما ، عنتيل ، باش ، لايص ، (يالا هيليليصا) ، جاى ، شبرامنت ، شبراخيت ، مينا ، ميت .. بمعنى تمطر ، تردد ، بيصورة لنوع من طعام الفول ، كثير ، قوى ، تبلل ، واقع فى الوحل ، (وقعنا فى الوحل) ، اغيثونى ، الحقل الغربى ، الحقل الشمالى ، محطة ، طريق) .

---

(١) علم اللغة د . وافى ص ٢٩١

والحضارة الحديثة تمطرنا كل يوم على الأقل بحوالى خمسين كلمة جديدة ، كتليفون ، وتليفزيون ، وراديو ، وكاسيت ، وسيوسيولوجيا ....

واحيانا يأتى الجديد ملفقا من لغات قديمة : مثل (بسكليت) اى دراجة ، اذ أن (بى) لاتينى يدل على التثنية ، و (سيكل) من أصل يونانى بمعنى الدائرة ، و (ات) علامة تصغير فى الفرنسية .

ويحاول بعض العلماء والأدباء احياء كلمات مهجورة ، أو بطريق النحت ، مثل تبغدد ، للمترف ، وجزارة الوظائف وسعودتها ، لتوظيف الجزائريين أو السعوديين محليا .

وللشيخ طاهر الجزائرى فى المجمع العلمى بدمشق (١) محاولة تتبعية فى احياء الفاظ لغوية ماتت : فالعطشان ما لايصبر صاحبه ، والذى لايصل الى الماء (لواب) ، وما يصاحبه صرير الأذنين فهو (تصرير الصماخ) ، ومع جفاف الريق (طلى) ، مع اضطراب وقلق ، فهو (القلعلع) .

أما الجوع ، فان صاحب تعب ، فهو (سغب) ، وبمصاحبة الغضب (ضرم) ، ومع البرد (خرص) ، ومع الضمور (خوى وطوى) . ومع الجزع والشكوى (قصف) . ومع اللين والتكسر يسمى (جخرا) . وان صاحبته انحناءة وقرقرة بطن ، فهو (اطيط) .. والطعام لرجل واحد يسمى (صحيفة) ، ولاثنين أو ثلاثة ، يسمى : (مئكلة) ، ولخمسة أنراد (صحفة) ، ولعشرة (قصعة) ، ولأكثر من ذلك (جفنة) ...

وسبق أن قدمنا اثر البيئة والحضارة والجنس فى التأثير والتأثر .. واثر العوامل الأدبية والثقافية ، وجهود الأفراد والجماعات والهيئات العلمية والحكومية فى الحفاظ على اللغة ، ومدى تأثرها بكل ذلك ، لفظا ، وجملة ، ونظاما وتركيبا ، واثر ذلك على اللغة بعامة تدهورا أو رقيا ، وفى ناحية أو عدة نواح .

على أن كثيرا مما ينزوى من مفردات العربية تأوى الى ركن ركين فى الأدب، تتحصن به ، ويطول عمرها هناك ، وتبقى مصونة فى الفصحى ، لغة القرآن والسنة : « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » (الحجر ٩) .

---

(١) محاضرات المجمع العلمى بدمشق جـ ١ سنة ١٣٥٣ هـ